

البعد الهوياتي للفكر الإسلامي في عصر العولمة

د. محمد مكحلي
جامعة سيدي بلعباس

تقديم :

يبقى سؤال الهوية يحتل مكان الصدارة في الثقافة العربية الإسلامية، بل أصبح ذا حساسية خاصة نتيجة الأوضاع التاريخية والحضارية والمتغيرات الدولية التي تعيشها المنطقة والعالم. حيث تطالعنا وسائل الإعلام يومياً بكم هائل من الأخبار والتحليلات التي تدافع عن الدولة القطرية أو القومية، وحقوق الإنسان وحقوق المرأة. من طرف آخر نجد من يرى في العولمة قدراً محتوماً لأبد من الانصياع له، وإلغاء التمايز والخصوصية الحضارية والتاريخية والاندماج في مجتمع عالمي موحد. لكل هذه القضايا ارتباطات مهمة ووثيقة مع إشكالية "الهوية التي لم تكن تُطرح قبل عقود، وعليه يعد موضوعها حديثاً في الفكر الإسلامي المعاصر. لهذا صار السؤال مركزياً وأساسياً حول الهوية في محاولة لفهم الذات والآخر.⁽¹⁾

يحتل سؤال الهوية اليوم مكانة الصدارة في الحراك السياسي الاجتماعي الثقافي الذي يعيشه العالم المعاصر ويكتسب هذا السؤال حساسية خاصة في الثقافة العربية الإسلامية نتيجة للخصوصيات التاريخية والحضارية وتبعاً لمتطلبات السياسة الدولية والمتغيرات، ومع أن هذا السؤال ذو طبيعة نظرية مجردة إلا أن إفرازا ته تبدو واضحة في متناقضات العصر السياسية والفكرية وفي تباين الأنماط الثقافية والسلوكية للناس داخل البيئة الثقافية الواحدة. على المستوى السياسي تطالعنا وسائل الإعلام بكم كبير من الأخبار والتحليلات التي تتحدث عن العولمة والصراع الحضاري ومحاولات أمركة العالم وإلغاء التمايز والخصوصية الحضارية والتاريخية للمجتمعات المختلفة كما يحتدم النقاش اليوم حول ما يسمى بظاهرة (الإرهاب)، ومحاولات بعض المفكرين والسياسيين في الغرب نسبة هذا (الإرهاب) إلى الدين الإسلامي وتعاليمه،⁽²⁾ وما يترتب على ذلك من دعوات إلى تجفيف منابع الإرهاب من خلال تغيير المناهج الدراسية العامة وتعديل التعليم الديني بل يصل الأمر في بعض الأحيان إلى الدعوة إلى تغييب بعض الآيات من القرآن الكريم التي يرى البعض أنها تعرض على العنف إغائها. وعدم التعامل معها.

إلى ذلك نشهد احتدام الصراع في مجتمعنا حول طبيعة النظام الاجتماعي والسياسي فهناك من يدعو إلى تطبيق الديمقراطية البرلمانية لأنها هي النظام الذي يحقق العدالة والحريات، وهناك من يدعو إلى نظام الحكم الإسلامي وتطبيق الشريعة وهناك من يدافع عن الدولة القطرية وآخرون ينادون بالدولة القومية .

كذلك يحتدم الصراع حول مفاهيم مركزية عديدة، منها - مثلاً - موضوع حقوق الإنسان وحقوق المرأة والعلاقات الأسرية والقيم الاجتماعية وغيرها. الحقيقة أن هذه القضايا جميعها وكثير غيرها، له ارتباط مباشر قريب أو بعيد بموضوع الهوية ذلك أن الهوية هي مجموعة الخصوصيات التي تميز مجتمعاً ما أو ثقافة ما وتجعل هذا المجتمع يتقبل بعض المفاهيم والقيم ويرفض بعضها الآخر إنها مرجعية للتعريف وجواب لسؤال في غاية الأهمية حول تعريف الذات وتحديداتها.

لذلك فإن مفهوم الهوية يشكل مفهوماً مركزياً نستطيع أن نطل من خلاله على ساحة المتغيرات الفكرية والسياسية والاجتماعية برؤية شمولية متكاملة.

إن إشكالية الهوية كقضية اجتماعية ثقافية هي إشكالية حديثة التطور في الفكر الإسلامي والفكر العالمي على السواء فقد كان سؤال الهوية في الفكر الإسلامي سؤالاً فلسفياً ينتمي إلى المنطق والميتافيزيقا دون السياسة.

لذلك فإن طرح هذه الإشكالية النظرية للبحث والتداول في الفكر الإسلامي الحديث يعود إلى العقدين الأخيرين تحديداً، حيث ظهرت مجموعة من الكتب والدراسات التي تعالج إشكالية الهوية في الفكر الإسلامي المعاصر لكن ذلك لا يعني أن هذه الإشكالية هي وليدة العقدين الأخيرين فقط، بل هي تعود في جذورها إلى لحظة تشكل الفكر الإسلامي المعاصر ذلك أن هذا الفكر بحكم ظروف نشأته التاريخية قد ولد مرهوناً بسؤال يرتبط بإدراك الذات وإدراك الآخر وعلاقة الذات بالآخر وهذا ما يجعل من سؤال الهوية سؤالاً مركزياً يقدم منظوراً واسعاً لرؤية الفكر الإسلامي الحديث وعبر مراحل تطوره المختلفة واتجاهاته المتباينة التي تتباين من حيث الجوهر في موقفها من الهوية وتجليات هذا الموقف في إدراكها لذاتها وللعالم من حولها. الصيغة الأخرى لسؤال الهوية في الفكر الإسلامي المعاصر نجده مطروحاً لدى المفكرين القوميين الذين انشغلوا في محاولاتهم لتحديد مضمون الهوية القومية العربية لتكون بديلاً للهوية الإسلامية

أ- لتبرير دعواتهم إلى الانفصال عن الدولة العثمانية وترك فكرة الدولة القائمة على أساس ديني وإنشائها على أساس قومي، كما نجد ذلك واضحاً لدى ساطع الحصري.

ب- للدفاع عن هذه الهوية القومية ضد التيارات الإيديولوجية المنافسة التي عايشته الفكر القومي في القرن العشرين، كما نجد ذلك عند ميشيل عفلق وزكي الأرسوزي، لكننا لن نتوقف أمام مفهوم الهوية القومية إلا بالقدر الذي تفرضه الدراسة لأنها ليست مجال بحثنا هذا وعليه سنتوقف في هذه الورقة العلمية على المحاور الآتية:

- سؤال الهوية في الثقافة الإسلامية المعاصرة

- السياق التاريخي لسؤال الهوية في الفكر الإسلامي

- الهوية الإسلامية بين العالمية والعولمة

أولاً: سؤال الهوية في الثقافة الإسلامية المعاصرة

أ- مفهوم الهوية

الهوية ظاهرة إنسانية ملازمة للكائن البشري تتحدد انطلاقاً من الخصائص والسمات المميزة للأمة وعليه فالهوية تتحدد بناءً على الدلالات اللغوية، والفلسفية والاجتماعية والتاريخية للمصطلح من ذلك نجد أن الجرجاني، عرفها بأنها الأمر المتعلق من حيث امتيازها عن الأغبار، وهي عند ابن رشد تقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه اسم الموجود، كما أننا نجدها عند الفارابي بأنها الشيء شخصه وخصوصياته ووجوده المنفرد الذي لا يقع فيه اشراك.⁽³⁾

إلى ذلك تعتبر الهوية نسبية وليست أزلية، وهي بهذا هوية متفتحة قابلة للتعديل، والتكيف مع الهويات الأخرى.

ولد الوجود الاستعماري في الاقطار العربية والإسلامية شعوراً، بالإهانة والثورة نتج عن هذا الوضع نوع من الإيديولوجيا الضمنية لدى عامة السكان المسلمين حيث وجدت الثقافة والهوية الإسلامية نفسها أمام تحدي كبير خارجي واجهته بالإصلاح والتغيير ثارة، وبالتقليد والرفض ثارة أخرى.⁽⁴⁾

سمح هذا الوضع بظهور وانبثاق وعي وطني، مثل ذلك رد فعل كل من جامعة الزيتونة بتونس، والقرويين بفاس في الدفاع عن القيم الأساسية للهوية العربية الإسلامية ضد محاولات المسخ والتغريب.

ب - سؤال الهوية في الثقافة الاسلامية

عرفت المجتمعات العربية الاسلامية تحولات تميزن شارة بالانكماش والتوقع، وبالتفجر شارة اخرى
لقد اصبحت القيم العربية الاسلامية مهددة بالذوبان، استفز هذا التحول رجال الفكر وفي مقدمتهم الجاحظ
الذي الف كتاب البيان والتبيين، ليشيد بفضيلة حسن البيان والبلاغة عند العرب، وكتاب البخلاء كتأليف هجائي في
مثالب الفرس، الى جانب ذلك نجد التوجه الفكري للمعتزلة⁽⁵⁾، الدين وظفوا الفلسفة اليونانية العقلية للدفاع عن
مقولات الدين الاسلامي وصولا الى الدولة العثمانية، والتي احس فيها العرب بخطر تدمير ركن اللغة في الهوية العربية
الاسلامية بسبب سياسة التتريك او العثمنة⁽⁶⁾.

لم يكن سؤال الهوية مقتصر على التيار المحافظ، بل شمل ايضا التيار الواقعي المتشبع بالقيم والافكار
العربية من ذلك الرئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة اعترض على عدة مبادرات تبنتها سلطات الحماية في تونس
، بحث رفض ان يرفع الحجاب عن المرأة المسلمة في ظل سياسة الفرنسة والاندماج، ونجد الامر كذلك في الجزائر عند
فرحات عباس الذي رفض التنازل عن الاحوال الشخصية الاسلامية مقابل تمتع الجزائريين بحقوق المواطنة
الفرنسية⁽⁷⁾.

مع سقوط وانهيار النظام الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، بدأت سيطرة القطب الواحد وبدا في الافق صور
جديدة من الهيمنة، بدأت معها تظهر الايديولوجيات القومية والشعبوية وبدأت معظم الدول النامية تكيف
اقتصادياتها مع متطلبات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، اللذان يمثلان صلبا الهيمنة العالمية الجديدة .
صاحب ذلك مزيد من الفقر، ومزيد من اتساع الهوة بين الطبقات الرأسمالية الناشئة، والطبقة الوسطى
التي اخدت منها ادوارها في الريادة والقيادة انجر عنه تفاقم عديد الخلافات الاقليمية والعرقية والدينية .
مع بروز ايديولوجيات محافظة اصبحت معها الدين ملاذا للاحتماء والمقاومة، مع الرجوع الى التقاليد والى كل ما
هو قديم، خلاصا للاحتماء من ضرر الحداثة وهكذا برز للعلن سؤال الهوية خاصة في المجتمعات العربية الاسلامية ليعلن
ان التاريخ والايديولوجيات لم تنتهيا بعد⁽⁸⁾.

ثانياً: السياق التاريخي لسؤال الهوية في الفكر الاسلامي

يواجه المسلمون اليوم ازمات عديدة ذات علاقة بالتنمية والهيمنة في مختلف الميادين سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا، تضخمت ارهاصات مع ظاهرة العولمة وتداعياتها.

لا يمكن الحديث عن سؤال الهوية في الفكر الاسلامي دون الوقوف على سياقه التاريخي وعبر التوقف عند تجارب الماضي ومحاولة استذكار قرنين من الزمن بكل نجاحاتها ، واخفاقاتها ، دروسها ، وتجاربها ، بداية من عصر النهضة العربية الى خروج العرب والمسلمين من دائرة الاستعمار الى مرحلة الاستقلال الوطني والدولة الوطنية

مر العرب والمسلمون بمرحلة من الاحتكاك مع الغرب في اطار البحث عن فرصة للانعتاق من حالة التخلف والسبات ، عبر حملة نابليون على مصر وملامسة افكار الحرية والإخاء والمساواة ، نتج عنه نوع من التجاوب الفكري والحضاري بين امة تسير نحو الحداثة وأخرى تتلمس طريق النهضة⁽⁹⁾.

بدأت معها مسيرة البحث عن سبل النهضة والاقتباس من الغرب ، التي لم تنته حتى الان من نمط المعيشة حتى اعلى درجات التكنولوجيا

لقد افاق العقل العربي والإسلامي وتبلورت فيه تيارات فكرية في اطار النهضة الحديثة ، تشكلت عبر كتابات عن اصلاح والتجديد وخطاب نهضوي واعد

رأى المفكرون الاوائل ان الحداثة اساس النهضة ، فاتهموا الى اوربا وحاولوا تطبيق انموذج للتقدم جسده رفاعة الطهطاوي ، وخير الدين التونسي وغيرهم⁽¹⁰⁾

على الرغم من هذا الاعجاب بالغرب إلا ان المفكرين العرب والمسلمين انقسموا بين اعداء لهذا الغرب ومعجيين به ، لكن ظل سؤال الهوية مطروحا فقد عجزت الدولة الوطنية عن توفير الامن والاستقرار ، فاخفت العدالة وغابت الحرية ، وتفاقت الصراعات وازدادت التبعية للغرب مع انتشار الفقر والبطالة والامية

انتقل العرب والمسلمون الى مرحلة جديدة خاضوا فيها الصراع الايديولوجي مع التيارات الاخرى

ان ازمة الهوية التي مر بها العرب والمسلمون مرتبطة بالأساس بجوهر ازمة الفكر القومي والإسلامي وان النموذج الجديد للتنمية الحضارية ، هو الاخذ بالتجديد والأصيل والإبداع ، في اطار التنمية الحضارية بإحداث مشروع حضاري عربي اسلامي بشكل حقيقي⁽¹¹⁾

ثالثاً: الهوية الإسلامية بين العالمية والعولمة

جاءت أحداث 11 سبتمبر 2001 لتصدير حالة جديدة نحو الارهاب الدولي والأصولية الإسلامية، وتصدير الاسلام بأنه دين عنف فتحوّلت المواجهة الى صراع حضاري بين الرأسمالية الغربية والإسلام تتزايد يوماً بعد يوم شكوك ومخاوف تجاه العولمة، منها شكوك عبارة عن تحديات امام العرب والمسلمين بشكل خاص.

يرى المفكر السيد يسين ان اخطر التحديات التي تواجه العرب والمسلمين هي ارتفاع معدلات الامية، من ذلك ان اكثر من نصف السكان لا يستطيعون ممارسة التكنولوجيا الحديثة، فالعالم العربي والإسلامي يحتاج الى ثورة تعليمية كاملة، ومعها اعادة تأسيس مؤسسات التعليم العالي، شكلاً ومضموناً ورفع مستويات التعليم والبحث العلمي.⁽¹²⁾

ان مخاطر العولمة على الهوية الإسلامية ترتبط فيما بينها بوحدة الوطن والتاريخ والمصير المشترك والحضارة، مع انتشار مفاهيم الذكر والأنثى، والسفور والحجاب، والتعليم الإسلامي، والمناهج الدراسية.⁽¹³⁾ تسهم الفضائيات في تنمية عديد التطلعات، حيث نثير الشعوب العربية والإسلامية بالحرمان عند مقارنة المجتمع العربي الإسلامي بالمجتمعات المتقدمة حيث يظهر المجتمع العربي الإسلامي انه محروم ومنسلخ من ذاته.

ان اختراق العولمة للعالم الإسلامي يجعلها تتقاطع مع قيم وتقاليد الاسلام، فهي اي العولمة تخدم وسائل عبر الانتشار الثقافي، وسياسات التحديث، والدعوة الى الديمقراطية وحقوق الانسان.

ان العرب والمسلمون اليوم هم اليوم اكثر من اي وقت مضى بحاجة الى وقفة يشترك فيها الجميع، لإقامة حوار عقلاني ووضع استراتيجية واضحة بعيداً عن القطرية والنزعة الضيقة، يكون ذلك عبر مواجهة الآخر لحماية الهوية الإسلامية من سياسات قوى العولمة وتدخلاتها في شؤون العرب، والمسلمين من الحياة الخاصة الى الدين والشريعة، و التقاليد، والمناهج الدراسية، والديمقراطية، والاقتصاد، وحقوق الانسان.⁽¹⁴⁾

ان تحصين الفرد العربي المسلم وإدراك اهمية الخصوصية الإسلامية، من تقاليد وثقافة عربية إسلامية، تؤدي الى خلق جيل مؤمن بالوطن متشبع برسالة الاسلام ودور الحضارة، وعليه من هذا المنظور لا يمكن للمسلمين في الحاضر ان ينسلخوا عن الماضي والتراث وهذا كله يتطلب وضع استراتيجية تحافظ معها الامة على هويتها، وثقافتها رغم الغزو الثقافي والبت الفضائي والمعلوماتي بالمحافظة على الخصوصية الوطنية والقومية⁽¹⁵⁾

أن سبل مواجهة الهوية الإسلامية في ظل العولمة ، يقوم على اساس اقامة المشروع الحضاري الذي هو مصير العرب والمسلمين وسر قوتهم في عالم التكتلات الدولية يجمع بين :

1 - المحتوى الديمقراطي

2 - العدالة الاجتماعية

3 - التنمية المستقلة

4 - الاستقلال الوطني

5 - التجدد الحضاري⁽¹⁶⁾

الخاتمة

إن البعد الهويي في الفكر الإسلامي عصر العولمة يحتاج الى حوار وطني وقومي شامل ، لتوضيح القضايا المطروحة ، فالتنافس حول هذا البعد اقتصاديا ، ارتبط بقوة الدولة وبقدرتها على مواجهة العولمة بتجديد الطاقات عبر مواجهة إرهابات القرن الواحد والعشرين ، والتغيرات الكبيرة ، التي يشهدها العالم وذلك بمحاولة ترتيب الاوضاع الداخلية.

إن العرب والمسلمون بحاجة ماسة اليوم أكثر من أي وقت مضى للتمسك بثوابت عربية إسلامية أصيلة ، في مواجهة تحديات العصر ، وتبني نظرة معاصرة اتجاهها دون الانغلاق يكون هذا ضمن محددات الأمة وحضارتها وأصالتها ، وتاريخها ، وهويتها ، مع الانفتاح على روح العصر دون التخلي عن هويتها الروحية والانسلاخ من ذاتها . لقد عايش العرب والمسلمون عدة ايديولوجيات قامت على سحق الفرد باسم الجماعة ، فصادرت حرية التعبير والتفكير ، والمعتقد ، فانعدم الخلق والإبداع وساد التكلس ، وانتعشت القيم المتردية معها تأكد ان المقومات الحضارية حق مقدس .

إن إرجاع ظاهرة البعد الهويي يمكن إرجاعها إلى عناصرها الأولية القائمة على الأمة والقطر والمواطن ، فالعرب والمسلمون ينتمون الى امة عربية وإسلامية واحدة ، علاقاتها متشابكة ومتداخلة ، تطرح إشكالية الحق والواجب وعليه لا سبيل الى تجاوز هذه الإشكالية إلا الديمقراطية ، وهي في مفهومها الإقرار بوجود الآخر ، والتعايش معه دون تجاهل اي عنصر وجود العنصر الآخر ، أو التناقل عن حقوقه .

لقد تميز الاستعمار الفرنسي خاصة في أقطار المغرب العربي بمحاولاته محو هوية الشعب من خلال عديد السياسات كمشروع الإدماج، والتجنيس والظهير البربري، والمؤتمر الافخارستي، الخ وهي كلها مشاريع خلفت اثارا ثقافية ما زالت تهدد كيان أقطار المغرب العربي، ولا أمل في القضاء على ذلك إلا بمشروع ثقافي وطني مضاد.

الإحالات والهوامش :

- 1- سالم النعداد، صراع الهوية بين الانا والاخر المغرب العربي نموذجا، الأطلسية للنشر، تونس 2000، ص 14
- 2- مثال فوكوياما نهاية التاريخ، وهنتفتن صدام الحضارات
- 3- حفيظ الطبايبي، صراع الهوية الزيتونة والزيتونيون في معترك النضال الوطني والاجتماعي، اعمال الندوة الدولية العادية عشر حول الزيتونة الدين والمجتمع والحركات الوطنية في المغرب العربي، منشورات المعهد الاعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس طبعة ثانية 2006، ص 420 421
- 4- مفيد الزبيدي، العرب والهولة في عالم متغير، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الاخضر، طرابلس، اكتوبر 2005 ص 88
- 5- سالم النعداد، صراع الهوية بين الانا والاخر المغرب العربي نموذجا، المرجع السابق ص 18
- 6- نفسه
- 7- نفسه ص 14 و 15
- 8- مفيد الزبيدي، العرب والهولة في عالم متغير ص 88
- 9- نفسه
- 10- نفسه
- 11- عبد الخالق عبد الله، ست اطروحات حول كيفية التعامل مع الهولة، مجلة البحرين الثقافية، السنة 7، العدد 26 اكتوبر 2000
- 12- السيد يسين، الهولة والطريق الثالث، القاهرة الطبعة الثانية، ص 148 149
- 13- مفيد الزبيدي، المرجع السابق ص 154
- 14- نفسه
- 15- نفسه
- 16- خير الدين، نسيب العرب وتحديات القرن الجديد، الموسم الثقافي للمركز العالمي لأبحاث ودراسات الكتاب الاخضر، طرابلس 2002 ص